المحاضرة الثانية:

1-المدرسة البصرية وأسباب وضع النحو لديها:

البصرة مدينة قديمة جداً ،كانت تسمى في العصور الوسطى في أوربا "بلسرة" اختطّها عتبة بن غزوان بطلب من عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وجعلوها بلداً ومقراً ينزلون إليه بعد رجوعهم من غزواتهم؛ لأنّها قريبة من الماء والمرعى، وكان ذلك سنة أربع وعشرة للهجرة[1].

وكانت البصرة مدينة تثير طمع كلّ من يمرّ بها؛ لأنّها تقع على شطّ العرب ملتقى نهري دجلة والفرات، فكانت بذلك مدينة تجارية أيضاً، ممّا ساعدها على أن تكون ملتقى الحضارات والثقافات المختلفة، فانتشرت فيها العلوم، واشتهر فيها سوق المربد بوصفه مركزاً للعلم تنشد فيه الأشعار ويلتقي فيه الخطباء والشعراء والأدباء، ممّا أهّل البصرة لأنْ تصبح في تلك الفترة قِبلَةً للعلم والعلماء.

أسباب وضع النحو لدى مدرسة البصرة:

تجمع الروايات على أنّ أبا الأسود الدؤلي هو الذي وضع اللبنات الأولى للنحو العربيّ والنحو البصري تحديداً، بما وضعه من نقط الإعراب للقرآن الكريم، وإعجامه هو وتلامذته فيما بعد، فكانت البصرة بذلك مهد النحو العربي، والتربة التي ترعرع فيها إلى أن استقام.وتشير أكثر الدراسات إلى أنّ الباعث الأوّل والحقيقي لوضع النحو هو اللحن، الذي شاع وفشا في شبه الجزيرة العربية بعد الجاهلية، إذ لم يكن منه في العصر الجاهلي إلاّ ما كان لغة[2]،وإنّ أوّل ما اختلّ من الكلام العربي هو الإعراب؛ أي الخطأ في الإعراب، فقد روي أنّ رجلاً أخطأ بحضور النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي: «أرشدوا أخاكم فقد ضل»[3]،ويروى أيضاً أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد مرّ «على قوم يسيئون الرمي فقرعهم فقالوا: (إنّا قوم متعلمين)، فأعرض مغضبًا وقال: "والله لخطؤكم في لسانكم أشدّ عليَّ من

---

[1] -ينظر المدارس النحوية، الحديثي ،ص25 وما بعدها

[2] -ينظر تاريخ الأدب العربي الرافعي ، راجعه عبد الله المنشاوي ومهدي البحقيري ،مكتبة الإيمان القاهرة، ط1، 1940م، ص203

[3] -ينظر نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، محمد الطنطاوي، دار المنار،(د ط)،1412هـ-1991م ص7

خطئكم في رميكم»[1]،وقال ابن قتيبة: « سمع أعرابي مؤذناً يقول: أشهد أنّ محمداً رسولَ الله بنصب رسول فقال ويحك يفعل ماذا؟»[2]؛ أي أنّ السامع كان ينتظر الخبر بعد أنْ جعل المؤذّنُ الخبر بدلاً.

ولم تسلم البادية هي أيضاً من اللحن، فقد تسرّب إليها بعدما كثر وعمّ، فهذا الجاحظ يذكر أنّ أوّل لحن سمع بالبادية قولهم: (هذه عصاتي)،وصار الذي لا يلحن يشار إليه بالبنان، فقد ذكر الأصمعي أنّ الذين لم يلحنوا في جدٍّ ولا في هزلٍ أربعة هم: «الشعبي، وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف وابن القرية، والحجاج أفصحهم»[3]،لذا خاف العلماء على أن يمتدّ هذا اللحن إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف –على الرغم من أنّه قد وقع– فحاولوا أن يواجهوه بشتّى الطرق والسبل، فكان أنْ اهتدوا إلى وضع علم النحو،ينقل ابن خلدون لنا هذه الأسباب مجتمعة بقوله: « فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم تغيّرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعرس، والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقى إليها ما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع، وخشي أهل العلوم منهم أن تسدّ تلك الملكة رأساً، ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه، مثل أنّ الفاعل مرفوع والمفعول به منصوب، والمبتدأ مرفوع، ثم رأوا تغيّر الدلالة بتغيّر حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغيّر عاملاً وأمثال ذلك، وصارت كلّها اصطلاحات خاصّة بهم فقيّدوها بالكتاب، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو»[4].

ولم يظهر علم النحو هذا قبل الإسلام لعدم الحاجة إليه، فقد كانوا في جاهليتهم الأولى ينطقون عن سليقة جبلوا عليها دون الخضوع إلى قانون يضبط كلامهم، فقانونهم هي ملكتهم،وقد ذهب بعض العلماء في مقابل ذلك إلى أنّ علم النحو قديم عند العرب، وقد جدّده الإسلام على يد أبي الأسود الدؤلي بأمر من عليٍّ كرّم الله وجهه[5].

---

[1] –نشأة النحو ،ص7

[2] –نفسه،ص7

[3] –نفسه ،ص8

[4] –مقدمة ابن خلدون،ابن خلدون عبد الرحمن، تح عبد الله محمد الدرويش،دار البلخي دمشق،ط1، 1425هـ/2004م، ج2ص369

[5] –ينظر نشأة النحو ،ص9

أمّا عن المكان الذي احتضن هذا العلم فتجمع أغلب الدراسات على أنّه نشأ في العراق، وفي البصرة تحديداً؛ لأنّ العراق «على حدود البادية وملتقى العرب وغيرهم توطئة الجميع لرخاء الحياة فيه،فكان أظهر بلد انتشر فيه وباء اللحن الداعي إلى وضع النحو»[1] .

[1] -نشأة النحو ،ص10